نشأة المئذنة

د. عبد المنعم عبد العزيز رسلان

مقدمة:

حرص أغلب المستشرقين على نفي أي دور حضاري للعرب قبل الإسلام وبعد ظهوره، إشباعاً لهوى في نفوسهم، أعماهم عن رؤية الحقيقة أو البحث عنها، وسرعان ما تلقفوا رأياً لابن خلدون سعدوا به وهللوا له، واعتبروه سنداً لما ذهبوا إليه من عجز العرب عن القيام بدور حضاري يذكر، وما حسبوا أن ابن خلدون عندما قال ببعد العرب عن الصناعات والحرف إنما قصد البدو من العرب دون غيرهم.

والمستشرقون حينما ذهبوا هذا المذهب الإنكاري وأذاعوا به، إنما قصدوا تشويه صورة العرب وإظهارهم بصورة المعاجز عن أداء أي دور حضاري، يعبر عن مواكبة الحضارة الإنسانية. وتخفيفا لهذا الاتجاه، نسبوا الحضارة العربية الإسلامية إلى غير الشعب العربي، فهي في نظرهم حضارة من عمل شعوب مقهورة فتح المسلمون بلادها، وغلبوا أهلها على أمرهم، وعليه فما من بناء شيده العرب إلا وهو مقتبس من أصل ساساني أو بيزنطي أو روماني.

وقد بذل المستشرقون في تثبيت هذه المفاهيم لدى كل من عني بدراسة الحضارة العربية الإسلامية، جهداً كبيراً، حتى أخذ الناس يرددون هذه المفاهيم، وكأنها حقائق مسلم بها، فالمساجد في رأيهم مثلاً ـ قد أخذت تصميمها وعناصرها المعمارية من الكنائس أو المعابد القديمة.

وسأعرض لأقوال بعض هؤلاء المستشرقين، لنقف على الصورة القاتمة، التي حرصوا على تصوير العرب بها أمام العالم. ثم نعرض في هذا البحث لمنشأة عربية صميمة. أنكر المستشرقون نسبتها الحقيقية. دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة البحث والتنقيب عن الحقائق الموثوقة بشأنها، ألا وهي المئذنة.

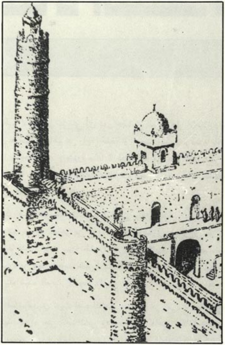

لوحة رقم (١) سوسة: منارة رباط سوسة ٢٠٦هـ/ ٨٢١م.

تقول المستشرقة جرترود بل Gertrude Bell «كان الغزاة المحمديون، مجرد بدو رحل، سكنهم الخيمة السوداء، وقبرهم رمال الصحراء، وكان سكان الواحات النادرة في غرب ووسط البلاد العربية مثل ما هم عليه اليوم، يقنعون بنوع قبيح من العمارة من اللبن وجذوع النخل، لا يزينه أي نقش معقد من وحي الخيال، ولا يصلح إلا لأيسر الحاجات»(١)

وقد تولى المستشرق كرزويل K.A.C.Creswell جمع هذه الآراء ونشرها في كتابه الكبير عن العمارة الإسلامية فقال عن العرب قبل الإسلام «إنه ليبدو أن عرب ما قبل الإسلام لم يكن لديهم إلا أخشن الأفكار عن البناء، ولم يكن معبدهم الرئيسي (يقصد الكعبة) شيئاً أكثر من مساحة صغيرة مسورة بأربعة جدران بارتفاع قامة الإنسان، ولم يحملوا في الأيام المبكرة إلى الأقطار التي فتحوها شيئاً معمارياً يتجاوز ما يخدم حاجاتهم العقائدية المتواضعة فحسب، وقد أحسن ريتشموند في التعبير عن ذلك بقوله: ان مدى الإمكانيات المعمارية الإسلامية قبل قيام العرب بفتوحاتهم، كانت لا تكاد تكفي إلا لتعبر عن حاجاتهم بطريقة ساذجة إلى أقصى درجة.

ويتابع كرزويل كلامه بقوله: «ينطبق هذا القول على العرب المستقرين. لكن العرب الرّحل في ذلك الوقت، كان يتكون منهم تسعة أعشار سكان بلاد العرب، وكانت الخيمة المصنوعة من الشعر هي أجمل عماراتهم، ولم يكن البدوي الأصيل ليتقبل راضياً أن ينام بين أربعة جدران ويعلو فوق رأسه سقف، إذ يشعر كما لو كان قد وقع في فخ..(٢)» ثم يتحدث عن المساجد التي أنشأها العرب في البلاد التي فتحوها فيقول: «وعندما بدأ العرب في الإحساس بذلك الطموح فإن حوافزهم في ذلك كانت سياسية، فاتجهوا إلى المعماريين الفرس في منطقة العراق... وإلى المعماريين الشاميين في منطقة الشام»(٣) .

المئذنة:

أنكر المستشرقون على العرب أنهم أنشأوا المئذنة، شأنها في ذلك شأن الوحدات المعمارية الأخرى التي جحدوا نسبتها إليهم، فقالوا إن المآذن الأولى في الإسلام عبارة عن أبراج رومانية استخدمها المسلمون في الأذان، إلا أن سبيل الإنكار المطلق ما كان ليستطيع الوقوف أمام الحقيقة أمداً طويلاً، والحقيقة لا تتطلب من الباحث سوى الصدق والأناة والبعد عن الهوى.

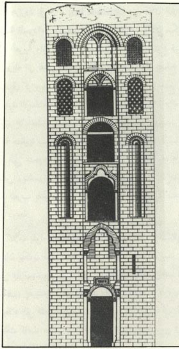

لوحة رقم (٢) الجزائر: بني حماد ـ منارة مسجد القلعة. القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي.

ولقد كان المستشرق سوفاجيه أول من ثاب إلى رشده، واعترف بهذه الحقيقة، بعد أن كلف نفسه دراسة الموضوع دراسة متأنية حيث قال: «ان المئذنة الأولى في أول مسجد (يقصد مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم) قد اتخذت أنموذجاً في جميع المساجد من بعد»[٤] .

والآن لنتتبع نشأة المئذنة، وكيف أنها وحدة معمارية أنشأها العرب منذ فجر الإسلام، تمشياً طبيعياً مع مقتضيات عقيدتهم التي آمنوا بها وتحملوا عبء نشرها.

الأذان: فكرة وهدفاً:

وصل إلينا من طريق الأحاديث المتواترة، أن المسلمين حين قدموا المدينة أقاموا المسجد النبوي، وكانوا ينتظرون وقت الصلاة فإذا حان قاموا فصلوا. وكان يسكن المدينة آنذاك اليهود والنصارى، وكان لكل منهما صلاته التي يدعو إليها جماعته بوسيلة من الوسائل، فاليهود يستعملون لذلك قرناً، والنصارى يتخذون ناقوساً. فدار بين المسلمين حديث عن كيفية الدعوة لصلاتهم المكتوبة، وإعلان وقت الصلاة، وثارت بينهم مقترحات عديدة في هذا الشأن،منها أن يُوروا ناراً ومنها أن يضربوا ناقوساً، وقال بعضهم بل بوقاً مثل قرن اليهود، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالناقوس ليضرب به الناس في الجمع للصلاة وهو كاره، فقد جاء في صحيح البخاري: «حدثنا محمود بن غيلان قال حدثنا عبد الرزاق، قال أخبرنا ابن جريج قال أخبرني نافع أن ابن عمر كان يقول: كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة ليس ينادى لها، فتكلموا يوماً في ذلك فقال بعضهم اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم بل بوقاً مثل قرن اليهود، فقال [illegible] **أولاَ تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة؟** فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **يا بلال قم فناد بالصلاة**»⁽٥⁾ .

كما ذكر البخاري في حديث آخر أن أنس بن مالك قال: «**لما كثر الناس قال: ذكروا أن يعلموا وقت الصلاة بشيء يعرفونه، فذكروا أن يوروا ناراً أو يضربوا ناقوساً**»⁽٦⁾

ولما كان الاعلام بدخول وقت الصلاة بطريق الناقوس قد أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم على كره منه ومن المسلمين على السواء، لموافقته لعمل النصارى، فقد هدى الله المسلمين إلى ما يريح نفوسهم في الدعوة إلى صلاتهم، وكان ذلك بالوقوف على الأذان، فقد روى البخاري «عن عبد الله بن عبد ربه [في رواية أخرى عن عمر] قال: لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناقوس ليضرب به الناس في الجمع للصلاة، وفي رواية وهو كاره لموافقته للنصارى، طاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوساً في يده فقلت له: يا عبدالله أتبيع الناقوس؟ قال: ماذا تصنع به؟ قال فقلت: ندعو به إلى الصلاة قال: **أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟** فقلت له: بلى قال تقول: **الله أكبر. الله أكبر. أشهد أن لا اله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله. حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح. الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله. فلما أصبحت**

أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما رأيت. فقال: **إنها لرؤيا حق إن شاء الله. قم** مع بلال، فألق عليه ما رأيت. فليؤذن به فإنه أندى صوتاً منك»(٧) .

أما متى شرع الأذان بهذه الصيغة فكان على الأرجح في السنة الأولى من الهجرة(٨) . ولما كان الغرض من الأذان هو الإعلام بدخول وقت الصلاة والدعوة إلى الجماعة، فقد كان من الطبعيّ أن يكون بصوت عال مسموع حتى يؤدي الغرض الذي شرع من أجله(٩) . وكان من الطبعيّ أيضا أن يفكر المسلمون في مكان الأذان. ومعلوم أنه كلما كان الأذان من مكان مرتفع صار مسموعاً لمسافة أبعد،وهذا ما أشارت إليه المصادر التاريخية الموثوقة. فقد ذكر السمهودى «أن ابن اسحق وأبا داود والبيهقى رووا أن امرأة من بني النجار قالت: «كان بيتي من أطول بيت حول المسجد. وكان بلال يؤذن عليه الفجر كل غداة، ويأتي بسحر فيجلس على البيت لينظر إلى الفجر، فإذا رآه تمطى ثم قال: «اللهم أني أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا دينك، قال: ثم يؤذن»(١٠) .

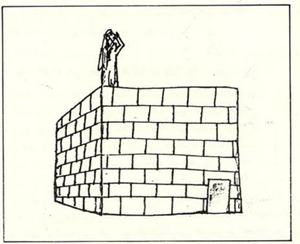

(شكل ١).

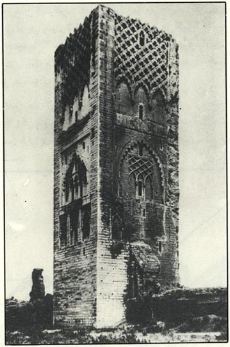

لوحة رقم (٣) الرباط: صومعة مسجد حسّان (٥٩٣هـ/ ١١٩٦م)

المئذنة نشأة وشكلاً:

عرفنا أن بلال كان يؤذن من فوق أطول بيت حول المسجد النبوي في أول الأمر، وقد زودنا ابن سعد في الطبقات الكبرى بالمرحلة الثانية عن مكان الأذان فقال: «أخبرنا محمد بن عمر، حدثني معاذ بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة قال: أخبرني من

سمع النوار أم زيد بن ثابت تقول : كان بيتي أطول بيت حول المسجد فكان بلال يؤذن فوقه من أول ما أذن إلى أن بنى رسول الله مسجده فكان يؤذن بعدُ على ظهر المسجد وقد رفع له شيء فوق ظهره (المسجد)»^(١١) ويعني هذا أن المرحلة الثانية كان يؤدي فيها الأذان من فوق مكان ارتفع عن مستوى سطح مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بوساطه بناء ارتفع عن نهاية جدار المسجد ليرقى عليه بلال حين يؤذن.

ويمكننا تصور هذا الارتفاع على أنه كتلة بنائية من اللبن فوق ركن المسجد، حيث يتيسر إقامتها، فإنه لا يمكن إقامتها فوق سقف المسجد المكون من فروع الشجر والسعف والخصف، كما يمكن أن نتصور الرقى إلى أعلى هذه الكتلة بوساطة أقتاب (درجات) توضع فوق أحد أضلاع (جدران) المسجد.

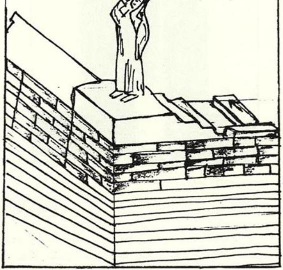

(شكل ٢).

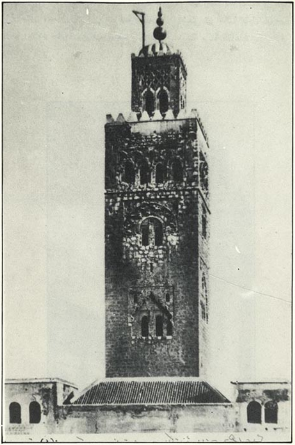

لوحة رقم (٤) مراكش: منارة الكتبية القرن ٦هـ/ ١٢م.

وإذا عرفنا أن سمك جدار مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بعدالتوسعه في عهده كان بمقدار لبنتين مختلفتين وهو ما يعادل لبنة ونصف[١٢] (شكل ٢) أمكننا القول بأن سمكه كان يقارب ٨٠ سم حالياً، وهو قدر يسمح باستغلاله لبناء كتلة مربعة القاعدة يمكن الرقى عليها للأذان.

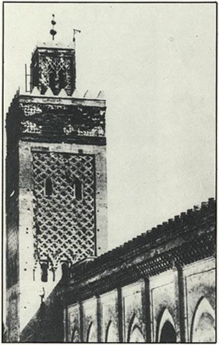

لوحة رقم (٥) مراكش: منارة القصبة ٥٩٣هـ/ ١١٩٦م.

ثم يزودنا ابن زبالة (ت سنة **٢١٤** هـ)(١٣) بالمرحلة الثالثة عن مكان الأذان ووصفه فيقول: «إن محمد بن اسماعيل وغيره قال: كان في دار عبدالله بن عمر اسطوان في قبلة المسجد يؤذن عليه بلال يرقى إليها بأقتاب(١٤) ، والاسطوان مربعة قائمة إلى اليوم [أي إلى عام **٢١٤** هـ] يقال لها «المطار» وهي في منزل عبيد الله بن عمر»(١٥) . كما ذكر السمهودى أنه نقل عن الأقشهرى الذي نقل بدوره عن عبد العزيز بن مروان أنه كان في دار عبد الله بن عمر أسطوان في قبلة المسجد يؤذن عليها وهي مربعة قائمة إلى اليوم، وكان يقال لها المطار»(١٦) . فإذا عرفنا أن الأقتاب كانت تؤدي دور درجات السلم، فهذا يعني أن المطار كان عالياً، وهذا ما يتحقق به الإعلام لأكبر عدد من سكان المدينة، كما أشار النص إلى أن «المطار» كان مربعا، وقد أطلق عليه عبد العزيز بن مروان اسم «منارة»(١٧) . مما تقدم يمكننا أن نتصور أن هذا المطار كان عبارة عن كتلة بنائية مربعة من قاعدتها إلى أعلاها ولا يصل المؤذن إلى قمة هذا المطار إلا بوساطة أقتاب (درجات) تلتصق به من إحدى جهاته الأربع.

(شكل ٣).

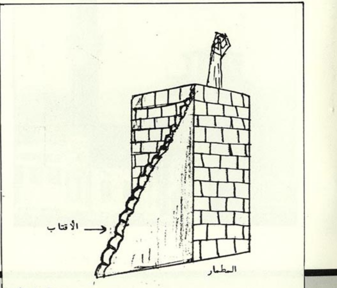

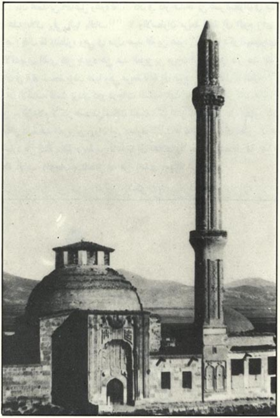

لوحة رقم (٦) قونية: منارة مدرسة أنس ـ القرن ٦هـ/ ١٢م.

موضع المطار (المئذنة) من مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم:

عرفنا مما سبق أن المطار (المئذنة-المنارة) كان في البيت الذي كان بيد عبد الله بن عمر الذي يقال له بيت عبد الله بن عمر، والمطار بهذا كان خارج مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وقد اتفق ابن النجار والسمهودى على هذا الموضع(١٨) كما يؤخذ من رواية ابن زبالة السابقة أن «المطار» كان في الجهة الجنوبية بالنسبة للمسجد فقد نص على أن الأسطوان (المطار) كانت في قبلة المسجد(١٩) ويزيدنا السمهودى تحديداً للعلاقة بين بيت عبد الله بن عمر الذي كان به المطار وبين المسجد فيقول: وعن جعفر بن وردان عن أبيه قال: لما استعمل الوليد عمر بن عبد العزيز على المدينة أمره بالزيادة في المسجد وبنيانه واشتراء ما حوله من المشرق والمغرب والشام (الشمال) فلما خلص إلى القبلة قال له عبيد الله بن عبد الله بن عمر لست أبيع هذا، هو من حق حفصة وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يسكنها، فقال له عمر بن عبد العزيز: ما أنا بتارككم أو أدخلها المسجد، فلما كثر الكلام بينهما قال له عمر: أجعل لكم في المسجد باباً تدخلون منه وأعطيكم دار الدقيق مكان هذا الطريق وما بقي من الدار فهو لكم ففعلوا، وأخرج بابهم في المسجد وهو «الخوخة» التي في المسجد تخرج في دار حفصة بنت عمر، وأعطاهم دار الدقيق وقدم الجدار في موضعه اليوم»(٢٠) ولزيادة تحديد مكان دار عبد الله بن عمر والمطار، نقول إن الخوخة التي أصبحت حالياً عبارة عن نافذة في جدار القبلة ترتفع عن الأرض قليلا، وهي المقابلة لقبر الرسول صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر تشير إلى مكان هذه الدار وما كان بها من «المطار» (المئذنة).

نخلص مما تقدم إلى أن المئذنة (المطار) كانت موجودة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت تمثل المرحلة الثالثة لمكان الأذان. وأنها أخذت شكلها المعماري الأول على هيئة كتلة بنائية مربعة ترتفع على كل البيوت وكذلك على سطح المسجد. وكان بلال يصعد إلى أعلى المئذنة بوساطة أقتاب (درجات).

وعليه فإننا نقول باطمئنان إن المئذنة وحدة معمارية عربية إسلامية أصيلة، لم تقتبس من معبد أو كنيسة كما ذهب أغلب المستشرقين وتلاميذهم. كما يمكننا القول بأن الشكل المربع للمئذنة صار المثل الذي احتذاه المعماريون المسلمون فيما بعد في بناء المآذن، كما أن تربيع قاعدة

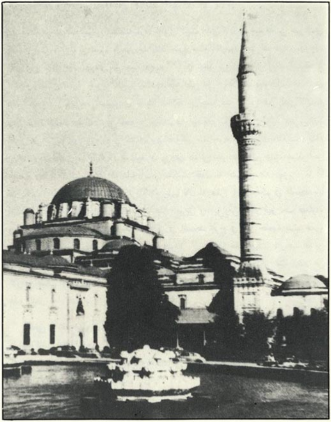

لوحة رقم (٧) اسطنبول: منارة مسجد بايزيد ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م عن (أصلانابا)

المآذن صار أسلوباً عاماً متبعاً سواء استدار باقي جسم المئذنة أو صار مضلعا كما هو في المشرق الإسلامي حتى القمة، أو بقي مربعا كما هو في المغرب الإسلامي، مع اختلافات غير جوهرية من حيث الزخارف أو طريقة الصعود إلى أعلاها، أو من حيث تنويع استعمالات المئذنة كالأذان، أو الاستطلاع أو التدليل على مكان المسجد، أو من حيث موقها من المسجد أو أعدادها.

ولعل في تتبع ما ذكرنا بالرسوم واللوحات ما يزيد الأمر وضوحا.
وبالله التوفيق ومنه العون.،،،

هوامش

(1) K. A. C. Creswell : Early Muslim Architecture, Second Ed. Vol. I, Part One. P. 11. Hacker Art Books New York, 1979. Bell (G) : Palace and Mosque at Ikhaidir, Oxford, 1914, P. VII.

(2) Ibid, p. 64.

(3) Ibid, p. 64.

(٤) د. أحمد فكري، المدخل ص ٢٧٦، سوفاجيه، المسجد الأموي بالمدينة، ص ١٥٦.

(٥) البخاري، الصحيح، جـ١، ص ١١٣، ١١٤، ط دار المعرفة بيروت.

(٦) المصدر السابق، جـ ١، ص ١١٤.

(٧) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن خزيمة والترمذي وقال حسن صحيح، انظر سيد سابق، فقه السنة، المجلد الأول، ص ١١١، ١١٢. نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

(٨) سيد سابق، فقه السنة، المجلد الأول، ص ١١١.

(٩) جاء في صحيح البخاري في الغرض من الأذان «حدثنا عبد الله بن يوسف قال: أخبرنا مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة الأنصاري ثم المازني عن أبيه أنه أخبره أن أبا سعيد الخدرى قال له إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء الا شهد له يوم القيامة، قال أبو سعيد سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم». انظر صحيح البخاري، جـ ١، ص ١١٤.

(١٠) السمهودى، نورالدين علي بن أحمد المصرى، وفاء الوفا، جزء ٢، ص ٢٢٩، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ثالثة، ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م، إحياء التراث العربي، بيروت.

(١١) ابن سعد، محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، جـ ٨، ص ٣٠٧، ط دار التحرير للطباعة والنشر ـ القاهرة، ١٣٩٠/١٩٧٠ م.

(١٢) كان عرض (سمك) الحائط (في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم) لبنة لبنة ثم إن المسلمين كثروا فبنوه لبنه ونصف، ثم قالوا يا رسول الله، لو أمرت فتزيد فيه قال: نعم، فأمر الحافظ محمد بن محمود بن النجار، أخبار مدينه الرسول

صلى الله عليه وسلم، ص ٦٩، ٧٠، ط دار الثقافة مكة المكرمة، ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م، كما زودنا السمهودى بمقدار سمك جدار المسجد فقال: ان الذي استقر عليه عرض (سمك) الجدار في زمنه صلى الله عليه وسلم الأنثى والذكر وهما لبنتان مختلفتان، واللبنتان المختلفتان من هذا اللبن الذي رأيناه أو اللبنة ونصف الأخرى وهو السعيدة يزيد على ذراع ونصف يسيراً كما يصف السمهودى هذه اللبنة فيقول أنها تزيد في الطول على الذراع وعرضها نصف ذراع وسمكها ربع ذراع، ويعني هذا أن سمك جدار المسجد على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعادل ٨٠ سم تقريباً بمقاييسنا الحاضرة.

(١٣) ابن زبالة، محمد بن الحسن بن زبالة، كتب كتابه تاريخ المدينة في شهر صفر عام ١٩٩ هـ سبتمبر عام ١٤٨ م وترجع أهمية هذا الكتاب إلى شخصية المؤلف الذي كان تلميذاً للامام مالك، واستطاع أن يجمع في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم نفسها المعلومات الخاصة بمسجدها في ظروف حسنة، كما يمتاز هذا الكتاب بأنه أقدم كتاب تناول هذا الموضوع، انظر مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الجزء الأول، ص ١٨٣، نشر مطابع جامعة الرياض ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م، الطبعة الأولى.

(١٤) الأقتاب، جمع قتب وهو الرحل الصغير على قدر سنام البعير، انظر المعجم الوسيط، جزء ٢، ط القاهرة، مطبعة مصر ١٣٨١ هـ/١٩٦١ م.

(١٥) السمهودى، وفاء الوفا، جزء ٢، ص ٥٣٠، ط ثالثة، بيروت. وعبد الله هو ابن عبد الله بن عمر.

(١٦) الأقشهرى، أبو عبدالله محمد الأقشهري، توفى سنة ٧٣٩ هـ/١٣٣٨/١٣٣٩ م، ألف كتابه «الروضة الفردوسية» انظر مصادر تاريخ الجزيرة العربية، جـ ١، ص ١٨٧، «والمطار» في اللغة هو الخيط الذي يقدر به البناء، وطمر اذا علا والمطمور العالي. ابن منظور، لسان العرب، ولعل هناك علاقة بين المطار بمعنى خيط البناء والفعل طمر بمعنى علا.

(١٧) السمهودى، وفاء الوفا، جزء ٢، ص ٥٣٠، ويرى السمهودى أن في اطلاق مسمى منارة تجاوزاً من عبد العزيز بن مروان.

(١٨) ابن النجار، الحافظ محمد بن محمود بن النجار، أخبار مدينه الرسول صلى الله عليه وسلم، تحقيق صالح محمد جمال، ص ١٦، ط ثالثة سنة ١٤٠١ هـ، نشر مكتبة الثقافة بمكة المكرمة، إذ جاء فيه «روى نافع عن عمر قال» كان بلال يؤذن على منارة في دار حفصة بنت عمر التي تلى المسجد، قال، فكان يرقى على أقتاب فيها وكانت خارجة من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن فيه وليست فيه اليوم». وكذلك السمهودى، وفاء الوفا، جزء ٢، ص ٥٣٠.

(١٩) السمهودى، وفاء الوفا، جزء ٢، ص ٥٣٠.

(٢٠) السمهودى، وفاء الوفا، جزء ٢، ص ٥١٦.

● ● ● ●

● ليست الأمم بالمظاهر والبرامج إنما بالأعمال وليس العامل أداة سياسية إنما أداة إنتاج وبناء.

«فيصل بن عبد العزيز»